صورة النظام العسكري العثماني في رحلات المغاربة - رحلتي المكناسي و أبو القاسم الزياني أنموذجا-

The Image of the Ottoman Military Regime in the Travels of Moroccons - The Journey of Al- Maknasi and Abu Al-Qasim Al-Zayani as an Example -

خولة بوقوفالة * [1]

[1] جامعة يحي فارس المدية، boukoufallah.khaoula@univ-medea.dz

تاريخ الاستلام: 24 /02/ 2024 **تاريخ القبول:** 02 /05/ 2024 **تاريخ النشر:** 10 /07/ 2024

ملخص:

تعد الرحلة السفارية المغربية من بين المصادر والمناهل المهمة والمساهمة في كتابة التاريخ العثماني، ودراسة العلاقات العثمانية المغربية في ذات الوقت. وهذا لما تحويه في طياتها من معلومات متنوعة وصور تحاكي واقع الدولة العثمانية. على غرار رحلتي كل من السفيرين المغربيين "ابن عثمان المكناسي" و"أبو القاسم الزياني" اللتان عكس فيهما صاحبيها ملاحظاتهما وانطباعاتهما الأولى عن الدولة العثمانية، نظامها العسكري، استعداداتها للحرب، نظام أمنها وكل ماله علاقة بها.

هذا وتروم هذه الدراسة إلى إبراز الصورة التي جسدها كل من السفيرين السابقي الذكر عن النظام العسكري العثماني استنادا إلى الملاحظات والانطباعات اللتان خلفاها في كتاباتهما.

الكلمات الدالة: الرحلة السفارية، ابن عثمان المكناسي، أبو القاسم الزياني، الدولة العثمانية، النظام العسكري، صورة الآخر.

Abstract:

The Moroccan Embassy is one of the important sources that contributing to the writing of Ottoman history and studying Ottoman-Moroccan relations at the same time. This is because it contains various information and images that mimic the reality of the Ottoman Empire. Similar to the travels of the Moroccan ambassadors "Ibn Othman Al-Maknassi" and "Abu Al-Qasim Al-Zayani" that contain their first observations and impressions of the Ottoman Empire, its

military system, its preparations for war, its security system and every things has related to it.

From this study, I wish to highlight the portrayal of the two former ambassadors of the Ottoman military regime based on the remarks and impressions they left in their writings.

Keywords: Ibn Othman Al-Maknassi, Abu Al-Qasim Al-Zayani, The Ottoman Empire, The Military System, The Image of the Other.

المؤلف المرسل: خولة بوقوفالة: boukoufallah.khaoula@univ-medea.dz

1. مقدمة:

تعتبر الرحلات السفارية المغربية نحو الدولة العثمانية من المصادر المهمة والمساهمة في كتابة التاريخ العثماني، وهذا لما بها من معلومات جمة عنها، ومن أوصاف عديدة لمعالمها ونظمها ولمختلف مناحي الحياة فيها. والتي كتبت استنادا إلى مشاهدات الرحالة ومعاينتهم للوضع. ولعل من بين أبرز الرحلات السفارية التي يمكن أن ندرجها هنا رحلتي كل من "ابن عثمان المكناسي" و"أبو القاسم الزياني"، اللتان سجل صاحبيها فيهما انطباعاتهما الأولى عن الدولة العثمانية، وعكسا للقارئ من خلالهما صورة تحاكي الواقع عما شاهداه فيها أواخر القرن الثامن عشر.

تجدر الإشارة هنا أن هاتين الرحلتين قد ضمتا أوصافا دقيقة لما عاينه الرحالين بالمنطقة، من وصف للمدن والنظم العثمانية ووصف للمجتمع ونظام التعليم العثمانيين، مع شرح للمصطلحات غير العربية. دون أن ننسى الجانب العسكري الذي شد انتباههما وعكس نظرتهما لهذه الدولة لما فيه من تنظيم محكم وميزات لم تشهد لدولة غيرها.

بناء على هذا، ما مدى تمكن كل من "ابن عثمان المكناسي" و"أبو القاسم الزياني" من نقل وتجسيد صورة النظام العسكري العثماني في رحلتيهما ؟ وهل من الممكن للباحث الاعتماد على الرحلتين كمصدر من مصادر كتابة التاريخ العثماني؟.

وللإجابة على الإشكالية المطروحة ساقتنا هذه الأسئلة إلى وضع هيكل عام للدراسة جسد في ثلاثة عناصر أساسية هي كالتالي: العنصر الأول خصصناه لحياة الرحالين وفحوى رحلتيهما، أما العنصر الثاني فقد تحدثنا فيه عن العلاقات العثمانية العلوية خلال فترة رحلتيهما، ليكون الحديث عن صورة النظام العسكري

العثماني واستعدادات الدولة للحرب حسب كل منهما آخر عنصر في هذه الدراسة. لنختتمها بذكر أبرز النتائج المتوصل إليها.

2. الرحالة وفحوى رحلته

1.2 . المكناسي ورحلته:

أ. التعريف بصاحب الرحلة

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب ابن عثمان، المكنى بالمكناسي نسبة لمدينة مكناس المغربية التي ولد بها. وهو أديب وشاعر وسفير وسليل أسرة علمية، قدر له أن يكون من بين أبرز شخصيات المخزن العلوي. ولِعلُو شأنه قَرَبَه السلطان المغربي محمد بن عبد الله[1] منه وعينه كاتبا للبلاط، ثم ما لبث أن جعله حاكما لمدينة تطوان، ثم وزيرا لدولته.[2]

نشط هذا الأخير خارج الدولة العلوية وداخلها، فقد عرف بالرحلات السفارية[3] التي قام بها، والتي كانت الأولى منها سنة 1779م نحو إسبانيا بهدف عقد اتفاق مع ملكها لإطلاق سراح الأسرى المسلمين، وقد جعلها تحت عنوان "**الاكسير في فكاك الأسير**". ليقوم عقبها بثلاث سنوات أي عام 1782م، وبأمر من السلطان محمد بن عبد الله برحلة أخرى نحو مالطة ونابلي لنفس الهدف السابق، وقد كتبها تحت عنوان: "**البدر السافر، لهداية المسافر، إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر**". [4]

واصل المكناسي رحلاته السفارية، فقد أرسل مرة أخرى بأمر من السلطان كسفير إلى الدولة العثمانية سنة 1785م، بهدف التفاوض مع السلطان العثماني عبد الحميد الأول[5] بشأن المشاكل التي حدثت على الحدود الجزائرية المغربية، والتي تسبب بها الجنود العثمانيون. ليقوم عقب انتهاء مهمته بأداء فريضة الحج، وكتابة رحلته بعنوان "**إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب**". [6]

ظل المكناسي في منصبه وفي خدمة المخزن العلوي بعد وفاة سلطانه، وقام بأمر من السلطان الجديد الذي تولى الحكم "السلطان يزيد"[7] برحلته الرابعة، وذلك بعد أن أوفده إلى ملك اسبانيا الجديد. لكن سرعان ما تدهورت العلاقة بين البلدين، وتم عزل المكناسي من منصبه ثم أعيد إليه عام 1791م والتحق ببلده بعد وفاة سلطانها في نفس السنة. [8]

كما حرص خلال مراحل تواجده خارج بلده على زيارة المكتبات والإطلاع على كتبها وخزائنها، والالتقاء بمشايخ وعلماء كل منطقة للانتفاع بعلمهم والأخذ عنهم، فالتقى خلال تواجده بدمشق بالمفتي الحنبلي الشيخ

الخزاعي إسماعيل، والتقى كذلك في تونس بالشيخ أحمد بن عبد الله السوسي المغربي. وهو ما انعكس عليه بالإيجاب من الناحيتين العلمية والأدبية.[9]

عرف كذلك ابن عثمان بكتاباته النثرية التي انعكست وبرزت في رحلاته وفي وصفه للمناطق والمدن، وكذا بكتاباته الشعرية، بقصائده التي كتبها في مدح السلطان العلوي، وفي مدح بعض الشيوخ والمعلمين. وبعد سنين من النشاط والعمل الدبلوماسي الدؤوب، وكذا بعد أن خلف لنا كتبا ذات قيم علمية، وافته المنية في أواخر القرن الثامن عشر، بالتحديد عام 1799م/ 1213هـ.[10]

ب. التعريف بالرحلة

هي الرحلة السفارية الثالثة لابن عثمان، قام بها سنة 1785م نحو الدولة العثمانية، بطلب من السلطان العلوي محمد بن عبد الله، بغية إنجاح السفارة السابقة له والتي توجهت هي الأخرى للدولة العثمانية للإلتقاء بالسلطان العثماني عبد الحميد الأول، وحل النزاعات والمشاكل التي حدثت في الغرب الجزائري.[11] على أن يقوم عقب انتهاء مهمته بزيارة أم القرى وإيصال الهدايا لأهلها. وقد كتبها تحت عنوان: "**إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب**".[12]

تزخر رحلته هذه بمعطيات ومعلومات جمة عن الدولة العثمانية وإيالاتها، وما شهدته هذه الأخيرة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وقد ساهمت في إعطاء صورة جديدة للدولة العثمانية خلال ذات القرن، باعتبار أن صاحبها لا ينتمي لها. فقد قدم من خلالها روايات دقيقة لما شاهده طوال طريق الرحلة أي من المغرب وإليه، من وصف للمدن والمناطق التي زارها، ووصف للنظم العثمانية، وللمجتمع العثماني مع شرح للكلمات والمصطلحات غير العربية الواردة في سياق كلامه وغير ذلك من الأمور.[13]

كان منطلق رحلة المكناسي من الرباط في شهر محرم سنة 1200هـ/ الموافق لعام 1785م، عبر البحر بعد أن أقام ستة أشهر في تطوان وطنجة، ومن ثم توجه نحو قرطاجنة ثم صقلية فإستنبول، وقد هيئت له عقب وصوله دار لإقامته مع إكرامية لاستضافته، ليستقبل في اليوم الموالي من طرف أعيان الدولة ويتوجهوا به صوب دار إقامة جديدة في العاصمة. وقد تمكن ابن عثمان من لقاء الوزير العثماني بعد خمسة أيام من إقامته في المدينة، وقدم له رسائل السلطان العلوي، ليلقى السلطان عبد الحميد الأول عقب سبع وعشرين يوما من إقامته.[14]

دون ابن عثمان رحلته هذه ومشاهداته خلال مدة سفره وذلك امتثالا للأوامر السلطانية، فكان لا يسمع أو يصادف شيئا إلا دونه، بدليل أن النقل الدقيق الوارد في الرحلة للتراجم والنصوص المطولة، وللأشعار من الاستحالة نقلها اعتمادا على ذاكرته فقط، ناهيك عن أن إقامته بالعاصمة العثمانية كانت مدة طويلة، لذلك رجح أنه قد اعتمد خلال رحلته على كراسات ينقل فيها ما شاهده أولا ثم قام عقب عودته لبلده بجمعها وتنظيمها ومن ثم تقديمها لسلطان المغرب.[15]

2.2 الزياني ورحلته:

أ. التعريف بصاحب الرحلة

هو أبو عبد الله محمد بلقاسم، بن أحمد بن أبي الحسن بن علي بن إبراهيم الزياني نسبة لقبيلة زيان، من مواليد مدينة فاس المغربية لعام (1147هـ/ 1734م). مؤرخ، وزير، سفير وسليل أسرة علمية، عاصر حياة أربعة سلاطين بدءًا من السلطان محمد بن عبد الله، فولديه الذين خلفاه من بعده، بالإضافة لجزء من حياة السلطان الرابع. وقد التحق بالخدمة في البلاط العلوي فعمل في الكتابة، ثم خاض عقبها غمار السياسة فولي على بعض المدن، ثم تقلد مناصب عليا كالسفارة والوزارة.[16] كما نشط هذا الأخير خارج الدولة العلوية وداخلها، وعرف برحلاته السفارية هو الآخر، فأُرسلَ في أول الأمر كسفير لإسبانيا بهدف توقيع اتفاق الهدنة بين الدولتين، ثم أرسل للدولة العثمانية عام 1200هـ/ 1786م.[17]

لتوافيه المنية سنة (1249هـ/ 1833م) بعد أن خلف لنا كتبا عديدة بلغت زهاء سبع وعشرين كتابا أبرزها كتاب "**الترجمانة الكبرى وأخبار المعمور برا وبحرا**"، "**الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب**"، "**البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف**"، "**الروضة السليمانية في ملوك الدولة العلوية ومن تقدمها من الدول الإسلامية**"، "**تحفة النبهاء في التفريق بين الفقهاء والسفهاء**"، "**حديقة الحكام الجفاة ومن انضاف إليهم من البغاة**"، و "**التاج والاكليل في مآثر السلطان الجليل**". [18]

ب.التعريف بالرحلة

هي عبارة عن ثلاث رحلات قام بها الزياني، تمت الأولى سنة 1794م، ثم تلاها بأخرى سنة 1811م، بالإضافة لرحلة سابقة له كان قد قام بها مع والده. وقد كتبها تحت عنوان "**الترجمانة الكبرى من الأمصار والمدن**

والقرى والقفار والبحار والجبال والأنهار، والعيون والمعادن والآبار وغير ذلك من عجائب خواص الحيوانات والأحجار وما يؤيد ذلك من التفسير والآثار ونوازل الفقه وشواهد الأشعار".[19]

وقد حررها في عدة سنوات وفي ظروف مختلفة، وأورد فيه أخبار العالم، وحكايات المؤرخين وما شهده في رحلاته الثلاث، وما ورد في كتب الرحالة السابقين له، بالإضافة للأحاديث النبوية، وتفاسير القرآن، والعديد من القصائد والأشعار، ليختمها بنصوص للرد على اليهود والنصارى والمجوس. وقدمها في الأخير للسلطان العلوي سليمان [20]. وللعلم فقد كتبها قبل أن يصل لسن السادسة والثمانين، بعد أن هيئت له أسباب الكتابة.[21]

كما أشار فيها إلى الكتب والمصادر التي استقى منها معلوماته، على غرار الطبري، وابن خلدون وابن الخطيب، وابن عثمان المكناسي والعياشي، بالإضافة لشهادات من لقيهم في المدن التي زاراها كإستنبول، الحجاز ومصر.[22]

تزخر رحلته هذه بمعطيات ومعلومات جمة عن المناطق التي زارها من المغرب وإليه، وعما شهده خلال القرن الثامن عشر، وتحدث فيها عن رحلته لأداء فريضة الحج، وعن المغرب الأقصى، وعن رحلته للدولة العثمانية، وما شهده فيها خلال فترة إقامته بها، وعن ملاقاته للسلطان عبد الحميد الأول، ليتبع هذا بحديثه عن عودته لبلده وما حدث بها عقب وفاة سلطانها محمد بن عبد الله، وعما لقيه بها. وعن العديد من الأقاليم العربية الأخرى.[23]

3. العلاقات العثمانية العلوية خلال عصر الرحالة

بلغت الدولة العلوية أوج قوتها، وأزهى عصورها أواخر القرن الثامن عشر خلال فترة السلطان "محمد بن عبد الله"، هذا الأخير الذي عمل خلال فترة حكمه على تهدئة أوضاع المغرب، وتوطيد دعائم حكمه فيه، مع إقامة علاقات ود مع جيرانه سعيا منه لإحلال نوع من الهدوء في بلده، والبروز كحاكم عربي إسلامي على مسرح الأحداث الدولية. كما سعى كذلك إلى بناء علاقات ود وطيدة مع الدولة العثمانية، فاستهلها بإرسال السفارات للبلاط العثماني بدءًا من سنة 1764م – 1765م، خلال عهد السلطان "مصطفى الثالث"[24]، واستطاع أن يحصل منها على مستلزمات السفن والذخيرة التي كان بحاجة لها. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقد واصل إرسال السفارات للأستانة في عهد السلطان عبد الحميد الأول وتمكن من تقديم العون له خلال حربه ضد روسيا.[25]

ورغم المساعي التي كانت تبذل في المغرب العربي لإحلال الهدوء في المنطقة ظل التوتر قائما ومستمرا بين المغرب والجزائر، وهو الأمر الذي دفعه إلى إرسال رسائل للدولة العثمانية احتجاجا منه ورغبة في وضع حد لهذا

الأمر، وقد كانت رسائله تحمل في طياتها ألفاظا حادة على غرار قوله: { إن لم تدفع ضررهم عن المسلمين فدعني وإياهم}.[26]

وللعلم فإن السفارة المرسلة للدولة العثمانية للسبب السالف الذكر هي سفارة "محمد بن عبد الوهاب المكناسي" وذلك عام 1199هـ/ 1785م. استطاع من خلالها أن يقيم قرابة أربعة أشهر بالدولة العثمانية، تمكن خلالها من نقل صور عما عايشه بالمنطقة، ووصفها وصفا دقيقا شمل مركز الحكم والإيالات، ومختلف جوانب الحياة السياسية الاقتصادية، الاجتماعية وحتى العسكرية.[27]

ليرسل بعد سنة من التاريخ السابق الذكر سفيرا آخرا للدولة العثمانية بالتحديد سنة (1200هـ/ 1786م)، ألا وهو "أبو القاسم الزياني" وذلك بغية تقديم مكاتيب وهدايا للسلطان عبد الحميد الأول من سلطان المغرب. وقد أقام بها هو الآخر مائة يوم ليعود عقبها لوطنه، وَيُتم إجراءات السفارة من إطلاع الحاكم على تفاصيل سفارته، وعلى كتاب السلطان له.[28]

4. صورة النظام العسكري العثماني من خلال الرحلتين

تحدث كل من المكناسي والزياني في رحلتيهما عن النظام العسكري العثماني اللذان رأوه في استنبول، فاستهل الأول حديثه عن الأمن في الحاضرة العثمانية في مختلف الأوقات والأماكن، في الأسواق والأزقة والأحياء العثمانية، ومن ثم ذكر مراسيم تفريق الرواتب العسكرية، وتحدث عقبها عن طرق الاستعداد للحرب التي صادفها في الدولة العثمانية. في حين وصف الثاني مراسم تفريق الرواتب في الدولة واستعداداتها للحرب فقط.

4. 1. النظام العسكري العثماني حسب المكناسي

تمكن السفير المغربي عقب قدومه للعاصمة العثمانية من زيارة أماكن متفرقة منها، والإطلاع على طبيعة الحياة فيها، فزار أحياءها وأسواقها ودكاكينها، وقد نال ما فيها من نظام وتنظيم وأمن استحسانه، فلم يتمكن على حد قوله من وصفها فقال: {ما رأيت ما يؤدي وصفها ومعناها، وما اشتمل عليه أقصاها وأدناها، إلا ما أجابني به بعض أحبار النصارى الذين بها مستوطنون...، حيث قلت له ما أعظم هذه المدينة، فقال لا يقال إنها مدينة، هذه دنيا، والحق قال إنما هي الدنيا حقيقة، ففيها من الأمور الدنيوية ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فلا يمكن أن تسأل عن شيء غريب إلا تجد منه سوقا}.[29]

فذكر أن العاصمة كبيرة، بها قدر كبير من حسن الترتيب والتنظيم، تعج أحياؤها ومختلف أماكنها بالناس من مختلف الجنسيات، وتَقدُم عليها السفن كالقوافل التجارية بمختلف أنواع السلع ولكل نوع منها سوق خاصة

به، وقال أن دكاكينها مشحونة بمختلف المواد وتضل في غالب الأحيان مفتوحة دون وجود أصحابها، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على انتشار الأمن في المنطقة.[30]

وقد أشار صاحب الرحلة في هذا الصدد أنه ورغم ضخامة العاصمة وكثرة وافديها إلا أن الحراس متفرقون في مختلف مناطقها، وفي جميع الأوقات بهدف الحفاظ على الأمن واستتباب الأمور فيها. وسعيا منهم إلى عدم حدوث أي خصومات أو مشاكل بين الناس خصصوا لأمن الأسواق والأحياء أربعين ألف مناوبة، محددة الزمان والمكان. على رأس كل واحدة قائد مسؤول عما يجري في منطقة محددة، وعلى الحراس التابعين له وهو الأمر الذي جعل المدينة آمنة بأكملها.[31]

ثم انتقل بعدها للحديث عن المراسيم التي تتبعها الدولة العثمانية في تفريق الرواتب العسكرية، بعد أن تصادف مع ذلك أثناء تواجده بالعاصمة، فقال أن هذه العملية تتم باجتماع العساكر باكرا خارج دار السلطان، وتحضر الأموال في قبة يجلس فيها الوزير والدفتردار أسفل شباك يشرف منه السلطان على العملية لكنه لا يُرى، على أن يأتي القادة بالترتيب للقبة ويأخذ كل قائد رواتب أصحابه لثلاثة أشهر، ثم يرجع لموضعه ويقسم الرواتب عليهم. [32]

فضلا عن أنه أشار إلى قاعدة أو بالأحرى عادة جرى التعامل بها من قبل السلاطين العثمانيين عند توزيع الرواتب، والتي تقوم على تحضير الطعام وإحضاره قبالة دار السلطان فإن بادر العسكر بالأكل هدأ بال السلطان وأيقن أنهم راضون بالمرتب وبالوضع القائم، وإن امتنعوا عنه أيقن أنه سيعزل من الحكم.[33]

4. 2. النظام العسكري العثماني حسب الزياني

نجد كذلك الرحالة أبو القاسم الزياني قد عالج وكتب في رحلته ما شهده حول النظام العسكري العثماني، فتحدث هو الآخر عن طريقة تفريق الرواتب العسكرية وقال أنه وفي يوم الديوان يتجمع السلطان وخاصته من أمراء وأعيان مع قادة العساكر كل قائد مع فرقته في ساحة قلعة السلطان، ليتم عقب جلوس السلطان في مكانه مباشرة تفريق الرتب.

تجدر الإشارة هنا أن هذا الرحالة قد تمكن من ذكر أوصاف كثيرة لهذه العملية عكس سابقه، فأشار إلى المراحل المتبعة في ذلك وذكر أنها تتم حسب عدد الفرق العسكرية. فيؤتى في البداية بمال العسكر الأول الخاص بالعسكر القديم، ثم مال العسكر الثاني الخاص بفرقة الصبايحية، ففرقة الإنكشارية، فالبحرية والعربجية والمعلمين وغيرهم، فإذا أتموا الفرق العسكرية وزعت رواتب أهل الدولة بدءا من الوزير وإلى غاية كل من يخدم السلطان والدولة. بالإضافة لعسكر السلطان المسؤول عن أمن القلعة، حيث يمنح المال لقائد كل فرقة وهو المسؤول عن

تفريقه عليهم. فإذا تم الأمر حمل الجند المال، ودعوا جميعهم للسلطان وهو ما يبرز ويعكس فرحهم ورضاهم عن السلطان فإذا لم يحمل العسكر المال كان ذلك دالا على سخطهم منه.[34]

ومن باب التنبيه والتنويه هنا، ذكر كلا الرحالين طريقة يعرف من خلالها مدى رضا العسكر من سخطهم، فكانت الأولى متعلقة بالإقدام على الطعام وأكله، وكانت الثانية متعلقة بحمل المال من تركه. وهو مايفتح الباب أمام الباحث للتساؤل عن مدى صحة الطريقتين من جهة ومن الأكثر استعمالا من جهة أخرى خاصة وأن الفترة الزمنية بينهما ليست بعيدة، فضلا عن أنها فترة سلطان واحد ألا وهو "السلطان عبد الحميد الأول".

4. 3. استعدادات الدولة العثمانية للحرب الروسية:

شهد القرن الثامن عشر استمرارا للحروب العثمانية الروسية، وإصرار هذه الأخير وسعيها لمواصلة الحروب رغبة في إضعاف الدولة العثمانية أكثر فأكثر و تحقيق مطالبها، فبعد معاهدة "كتشك قينارجة" التي عقدت سنة 1774م، وما ترتب عنها من تغير لموازين القوى لصالحها، وتدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية، ومن نتائج إيجابية عديدة تمتعت بها هذه الأخيرة. واصلت روسيا حروبها ضد الدولة العثمانية، فقامت بالإخلال ببنود المعاهدة السابقة الذكر، وهو الأمر الذي أزم العلاقات بين الطرفين. وقد زاد الأمر حدة تأييد النمسا لروسيا ودخولها في الصراع ضد الدولة العثمانية.[35]

تمكن الرحالة ابن عثمان المكناسي من أن ينقل أوصافا جمة لاستعدادات الدولة العثمانية للحرب العثمانية الروسية النمساوية التي تصادفت وفترة إقامته بالدولة، وللعلم جرت هذه الحرب بعد تحالف كل من النمسا وروسيا ضد الدولة العثمانية، بسبب الأطماع الروسية المتزايدة ورغبتها في السيطرة على بلد من بلاد المسلمين. واستعدادا للمواجهة أمر السلطان عبد الحميد الأول بسد الثغور، وبعث العساكر في مختلف المناطق لمواجهة روسيا. وقد ذكر المكناسي هنا أن استعدادات الحرب ظلت قائمة وجارية في الوقت الذي عكف فيه على مغادرة المنطقة بقصد الحج، وقد طلب منه الدعاء هناك لنصرة الدولة العثمانية.[36]

في حين أورد أبو القاسم الزياني في رحلته وصفا مفصلا لاستعدادات الدولة العثمانية للحرب الروسية أدق من وصف المكناسي، فذكر أن روسيا أرسلت كتابا للسلطان عبد الحميد تعلمه بالحرب، فأمر هذا الأخير

بالعمل بالمشورة فقاموا بذلك في دار شيخ الإسلام لما يقارب العشرة أيام اتفقوا في نهاية المطاف على القيام بالحرب. ليقوموا عقبها بتقييم ميزانية الحرب واقتطاعها من بيت المال.[37]

غير أن الوضع الذي كانت فيه الدولة العثمانية خلال عهده أثر على ميزانية الدولة، فبعد أن قيموا ميزانية الدولة وجدوا أن المال لا يكفي سوى لثلاثة أعوام، الأمر الذي دفع بالسلطان إلى التفكير بالتراجع عن الحرب، غير أن وزيره أشار عليه بالاستدانة من سلطان المغرب واستشارة سفيره في ذلك.[38]

وقد أطلعهم السفير المغربي على رأيه وقبل طلبهم، وقد قال في ذلك : { إن سلطاننا له رغبة في الجهاد، لولا مشقة البحر وبعد المغرب لسعى للجهاد بنفسه، وأما المال فإنه يعطيه بدون سلف، إذ لا ترضى همته السلف}، فأرسل بناءا على ذلك السلطان عبد الحميد كتابا لسلطان المغرب مع سفارته طالبا منه معونة مالية، فقبل السلطان عبد الله طلبه وأمده بمساعدات مالية على فترات متفاوتة، وبالبارود، والأسلحة.. وغيرها.[39]

ولكن الأمر المثير للإنتباه هنا، أن كلا الرحالين لم يوردا تفاصيل دقيقة عن استعدادات الحرب، على غرار عدد الجنود، نوعية الأسلحة، قادة الجيش، وحتى مجريات هذه الحرب ومكان حدوثها وتبعاتها على الدولة العثمانية، فقد انتهى الوصف عند الحديث عن الاستعدادات، ولعل هذا عائد لمدة الإقامة المقرر والمحدد ورغبة كليهما في مواصلة رحلته وإتمامها.

5. الخاتمة

ختاما تعد الرحلة السفارية المغربية من بين المصادر المهمة، والمساهمة في كتابة التاريخ العثماني، وفي دراسة العلاقات العثمانية المغربية خلال القرن الثامن عشر. خاصة وأن صاحبيها لا ينتميان للدولة العثمانية، فهما بذلك بعيدان كل البعد عن كل أشكال التودد والمحاباة، ناهيك عن أنهما تمكنا من نقل صور تحاكي الواقع عما شاهداه خلال فترة تواجدهما بالدولة العثمانية.

هذا وتتفاوت قيمة كتب الرحلات من كتاب لآخر تبعا لمجموعة من الأمور أبرزها: اهتمامات الرحالة في حد ذاته، غرضه من الرحلة، مدى قدرته على نقل الأحداث ووصفها وطريقة تدوينها، وبناءً كذلك على النتائج التي توصل إليها.

واستنادا إلى هذا، وبما أن صاحبي الرحلتين لا ينتميان للدولة العثمانية فيمكن أن نقول أنهما قد تمكنا من وصف الدولة العثمانية دون محاباة أو انحياز، واستطاعا أن ينقلا للقارئ الوضع القائم في الدولة فترة تواجدهما بها، فإن كان الوضع الذي صادفاه يستدعي المدح والثناء مدحا وأثنيا عليه وإن كان عكس ذلك فهما لم يغطيا عنه بل وصفاه كما هو.

ولابد من التأكيد على نقطة مهمة هنا مفادها أن أغلب مشاهد النظام العسكري التي أوردها المكناسي في رحلته قد تحدث عنها بنوع من الاختصار، فلم يبرز هذا الجانب بشكل كبير، ولم يذكر الاضطرابات التي شهدتها الدولة العثمانية خلال ذات الفترة على غرار تلك التي برزت في بلاد الشام ومصر. وهو الأمر الذي لم نجده كذلك في رحلة الزياني، غير أن هذا الأخير وصف النظام العسكري وصفا دقيقا واستفاض في الحديث عنه، ناهيك عن أن ما ورد في رحلته متشابه إلى درجة كبيرة مع ما ورد في رحلة المكناسي.

بالإضافة إلى ذلك،كل مشاهد النظام العسكري جعلتهما يصفان الدولة العثمانية بمظهر القوة والعظمة والضخامة، وجعلتهما كذلك يثنيان عليها وعلى القائمين على الحكم بدءًا من السلطان ووصولا إلى مختلف أعضاء الوزارة والعسكر.

فضلا عن ذلك، شكلت الرحلتين مصدرا هاما لكتابة التاريخ العثماني، ولمعرفة نظرة المغرب للدولة العثمانية، وموردا علميا لمن أراد أن يطلع على ما عاشته الدولة العثمانية خلال أواخر القرن الثامن عشر بقلم غريب عنها وبعيد في ذات الوقت عن النظرة الغربية الأوروبية.

6. الهوامش

[1] محمد بن عبد الله (1721– 1789م): هو السلطان العلوي محمد بن عبد الله بن إسماعيل، تولى حكم المغرب عقب وفاة والده عام 1757م. شهد المغرب في عصره استقرارا وأمنا، وازدهارا مس مختلف جوانب الحياة، وقد تمكن خلال فترة حكمه من تنظيم البلاد، فبحث عن أسباب الفتن وأعاد تنظيمها، واستهلها بقضائه على الجيش القديم وإحلال آخر مكانه، وتنظيم الإدارة، القضاء، والتعليم وغيرها. للمزيد أنظر: أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تح، عبد الكريم الفيلالي، ط02، دار نشر المعرفة، الرباط، المملكة المغربية،1991م، ص ص12– 17.

[2] محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية (1075–1311/ 1664–1894)، ط01، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 1977م، ص 334.

[3] الرحلة السفارية: هي رحلة يكون الغرض من ورائها القيام بسفارة لدى دولة أجنبية، ويقوم صاحبها عقب انتهاء رحلته أو أثنائها بكتابة كتاب حول سفارته، يكون من كتابة السفير نفسه أو أحد مرافقيه، وقد عرف هذا النوع في عهد السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي، وفي عهد السلطان العلوي محمد بن عبد الله خلال القرن الثامن عشر. انظر، مصطفى الغاشي، الرحلة المغربية والشرق العثماني محاولة في بناء الصورة، ط01، مؤسسة الإنتشار العربي، بيروت، لبنان، 2015م، ص ص344– 345.

[4] الأخضر، المرجع السابق، ص 335

[5] السلطان عبد الحميد الأول (1774- 1789): هو السلطان السابع والعشرين للدولة العثمانية وابن السلطان أحمد الثالث، عمل منذ توليه سدة الحكم على تهدئة الأوضاع الداخلية للدولة، ومواجهة روسيا وتوقيع معاهدة كوتشك قينارجة عام 1774م، ولكن سرعان ما اندلعت الحرب مجددا بين الدولتين، وبين الدولة العثمانية ونمسا، واضطر السلطان على مواجهة الدولتين لينتهي الأمر بفوزه على النمسا وخسارته لصالح روسيا، للمزيد أنظر: صالح كولن، سلاطين الدولة العثمانية، ط01، مرا، أديب إبراهيم الدباغ، بهاء الدين نعمة، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2014م، ص ص250- 253.

[6] محمد بن عبد الوهاب المكناسي، إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، تح وتق، محمد بوكبوط، ط01، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 2003م، ص ص25، 48- 50.

[7] السلطان يزيد: هو ابن السلطان العلوي محمد بن عبد الله، ثار على والده أكثر من مرة، واعتدى على الأموال التي أرسلها والده لأشراف مكة والمدينة والحجاز واليمن، الأمر الذي دفع بوالده إلى إعلان براءته منه، ونشر الإعلان في مكة والمدينة، وفي بيت المقدس، وبعث بآخر للسلطان العثماني عبد الحميد الأول سعيا منه لعدم قبول ابنه في هذه المناطق في حال فراره، مكث هذا الأخير في المشرق مدة من الزمن ثم ما لبث أن عاد للمغرب وبقي به إلى حين وفاة والده فتولى الحكم لسنتين وذلك من عام 1790 ولغاية عام 1792م أفسد خلالها كل ما بناه والده، الأمر الذي جعل العديد من الأهالي ينقلبون عليه ويبايعون أخاه بالحكم، فدخل في صراعات حول السلطة مع أخيه انتهت بمقتله سنة 1792م. للمزيد أنظر: عامر محمود علي، محمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث "المغرب الأقصى- ليبية"، (د، ط)، جامعة دمشق، سوريا، (د، ت)، ص ص119- 120.

[8] الأخضر، المرجع السابق، ص 336.

[9] الغاشي، المرجع السابق، ص ص250-251.

[10] الأخضر، المرجع السابق، ص ص336- 340.

[11] عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، مج09، (د، ط)، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، (د، ت)، ص ص31، 33.

[12] الغاشي، المرجع السابق، ص 251، أنظر كذلك، عبد العزيز بنعبد الله، الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ، ط01، دار نشر المعرفة، الرباط، المغرب، 2001م، ص 52.

[13] محمد بن عبد الوهاب المكناسي، إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، تح وتق، محمد بوكبوط، ط01، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2003م، ص ص14، 35.

[14] نفسه، ص ص51- 66

[15] نفسه، ص ص26- 27.

[16] أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص ص12- 25

[17] نفسه، ص 27.

[18] أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص ص35- 36.

[19] ليفي بروفنصال، مؤرخو الشرفاء، تع، عبد القادر الخلادي، (د، ط)، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977م، ص 124.

[20] السلطان العلوي سليمان (1792- 1823م)، تولى حكم المغرب سنة 1792م، وقد سار خلال فترة حكمه على نهج والده، فعمل في البداية على توطيد حكمه، وتهدئة الأوضاع والقضاء على الفتن التي برزت عقب وفاة والده. للمزيد أنظر: أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص24.

[21] نفسه، ص 34.

[22] نفسه، ص ص32- 33، ص 35.

[23] نفسه، ص ص37- 38.

[24] السلطان مصطفى الثالث (1717- 1774): هو السلطان السادس والعشرون للدولة العثمانية، تولى الحكم سنة 1757م، وقد شهدت فترة حكمه استقرار سياسيا بسبب اتباعه سياسة التسوية للمحافظة على الدولة العثمانية، وسعت خلالها روسيا إلى السيطرة على القرم والقوقاز، وإلى توسيع مناطق نفوذها في البلقان منتهكة كل المعاهدات المبرة بينها وبين الدولة العثمانية. للمزيد أنظر: صالح كولن، المرجع السابق، ص ص244- 245.

[25] عامر محمود علي ، المرجع السابق، ص 112.

[26] التازي، المرجع السابق، ص 33

[27] محمد المنوني، المحمد بن عبود، رحلة ابن عثمان المكناسي إلى القدس الشريف ومناطق من فلسطين، مجلة المناهل، ع39، السنة 16، الرباط، المغرب، 1990م، ص ص22- 26

[28] ليفي بروفنصال، المرجع السابق، ص ص107، 109.

[29] المكناسي، المصدر السابق، ص 71.

[30] نفسه، ص 75.

[31] نفسه، ص ص97- 98.

[32] نفسه، ص 98.

[33] نفسه، ص 99.

[34] أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص ص120- 121.

[35] أنمار عبد الجبار الدوري، العلاقات العثمانية الروسية 1828- 1841م، ط01، صفحات للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، 2017م، ص ص28-29. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، تر، عدنان سلمان، ج01، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، اسطنبول، 1988م، ص 336.

[36] المكناسي، المصدر السابق، ص ص133- 134، 136.

[37] أبو القاسم الزياني، المصدر السابق، ص 121.

[38] نفسه، ص ص131- 132.

[39] نفسه. أنظر كذلك، ليفي بروفنصال، المرجع السابق، ص 109.

7. قائمة المراجع:

- **المؤلفات:**

01- الأخضر محمد، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية (1075-1311/ 1664-1894)، ط01، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 1977م.

02- بروفنصال ليفي، مؤرخو الشرفاء، تع: عبد القادر الخلادي، (د، ط)، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977م.

03- بنعبد الله عبد العزيز، الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ، ط01، دار نشر المعرفة، الرباط، المغرب، 2001م.

04- التازي عبد الهادي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، مج09، (د، ط)، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، (د، ت).

05- الدوري أنمار عبد الجبار، العلاقات العثمانية الروسية 1828- 1841م، ط01، صفحات للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، 2017م.

06- ذنون طه عبد الواحد، الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والشرق، ط01، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005م.

07- الزياني أبو القاسم، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تح: عبد الكريم الفيلالي، ط02، دار نشر المعرفة، الرباط، المملكة المغربية،1991م.

08- الغاشي مصطفى، الرحلة المغربية والشرق العثماني محاولة في بناء الصورة، ط01، مؤسسة الإنتشار العربي، بيروت، لبنان، 2015م.

09- كولن صالح، سلاطين الدولة العثمانية، ط01، مرا: أديب إبراهيم الدباغ، بهاء الدين نعمة، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2014م.

10- محمود علي عامر، محمد خير فارس: تاريخ المغرب العربي الحديث "المغرب الأقصى- ليبية"، (د، ط)، جامعة دمشق، سوريا، (د، ت)،

11- المكناسي محمد بن عبد الوهاب، إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، تح وتق: محمد بوكبوط، ط01، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2003م.

12- يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، تر: عدنان سلمان، ج01، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، اسطنبول، 1988م.

- **المقالات**:

01- المنوني محمد، بن عبود امحمد، رحلة ابن عثمان المكناسي إلى القدس الشريف ومناطق من فلسطين، مجلة المناهل، ع39، السنة 16، الرباط، المغرب، 1990م.